أشكال أدب الترحال
قديما وحديثا

قديماً قالوا: (اغترب تتجدد)ولا يعرف حقيقة الحياة من لم ينسلخ من جلده ولو مرة واحدة.ومن معانى السفر فى اللغة العربية :أن يسفر الرجل عن حقيقة أمره. ففى السفر سفور عن القشور والزيوف. وتحديق فى وجه الحقيقة أو مواجهه الأشياء فى عريها الطبيعى.دون إلف وعادة ورتابة .وليس هناك من نبىّ إلا رحل عن موطنه الأصلى. أو جرب الترحال والتجوال.بما يقوى العزم صلابة.والروح شفافية .والوجدان ثراء.وكأن الإنسان يستبدل بانتمائه الجغرافى الضيق انتماءاً كونياً واسعاً.فيكون الكون كله مركزه .وأشياء العالم داره.وموجوداته وأناسه إخوانه .وقديماً قال:أبو الحسن المسعودى فى موج الذهب:ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما تنمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار.واستخراج كل دقيقة من معدنه .وإثارة كل نفيس من مكمنه))وما يشير إليه المسعودى قديماً يشير إليه الشاعر (ت.س.إليوت)حديثاً بقوله)ارتحلو..... انطلقوا أيها الرحالة.فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة)فالترحال تعليم للصغير وخبرة للكبير (وهو مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب)وعند الطهطاوى فى رحلته إلى فرنسا كما يقول الشيخ (حسن العطار)شيخ الجامع الأزهر(١٨٢٦م - ١٨٣١م) ((وقد أودع فى هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب..ما شاهده من

عجائب تلك البلاد،وأحوال هؤلاء العباد،ما يحرض العاقل على الأسفار والنقل فى الأمصار،حتى يزداد بذلك علماً يقيناً، ويفوق بالإحاطة بأحوال عبادة فى الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مِيْنا).

إذن الرحلة كشف واكتشاف وقدره على رؤية المشابه والنقيض وشحذ للمقارنة والمواجهة ،وهى كمعنى لغوى تستدعى فى المعجم العربى دلالات (النهاية . المغايرة . الخروج من حدود الذات . الإرجاء . الموت)وهذه الحقول الدلالية الواسعة تضم معانى شعورية وفكرية وفلسفية متعددة للرحلة وما تشحذ به الوعى الإنسانى من مختلف التصورات والرؤى ،حتى ليمكن أن نطلق على حركة الترحال بأنها (جامعة الحياة المتدفقة)التى لا تحدها حدود أوقيود،وتمتاز بالطلاقة والرحابة ،وقدرتها على التوحيد بين الهموم الإنسانية المشتركة،واستكشاف المختلف فى المؤتلف ،عبر الأزمنة والأمكنة،كما أن الرحلة تحرر الإنسان من قيوده الداخلية والخارجية،وذلك بتحقيق التجارب الجديدة الطازجة القادرة على هز قناعاته القديمة ،وإعادة تأسيس وعى إنسانى جديد لديه ،يكون أقرب إلى الحرية ،والوعى النقدى،ذلك أن الترحال يشحذ جدلية الانفصال والاتصال ،فكل انفصال عن الوطن ،الجغرافيا، التاريخ إلى وطن جديد، وتاريخ جديد يتبعه اتصال

جديد على مستوى الوعى ،وكأنها أشبه بثورة خلاقة متوترة بين تصدع الأنا القديمة،وإثراء الأنا الجديدة للرحال،فكل استقرار جمود،وشيخوخة وذبول،وكل استنفار وترحال قوة وشباب وغضارة على جميع المستويات.

وإذا أردنا أن نستعرض تاريخ أدب الرحلة فى الشرق والغرب،لضاقت بنا هذه الصفحات القصيرة ولاحتجنا إلى مجلدات كثيرة لبحث الموضوع ولكم يكفى أن نقول أن الرحلات قد بدأت منذ أن بدأ الإنسان يدب حياً بين أحياء،وقد تنوع أدب الرحلات تنوعاً هائلاً فهناك الرحلات الحقيقية للقدماء سواء فى التراث العربى والغربى فى القديم والوسيط والحديث،ويكفى أن نتذكر فى هذا السياق فى التراث العربى رحلات(ابن بطوطة) و (ابن جبير) وفى التراث الغربى الوسيط رحلات البندقى(ماركو بولو)و(فاسكودا جاما)و(كريستوفر كولمبس)و(فرديناند ماجلان)وفى العصر الحديث عند العرب رحلات(الطهطاوى)و(أحمد فارس الشدياق)إلى فرنسا،و(أمين الرحانى)إلى أوربا وغيرهم كثيرون،وفى الغرب الحديث رحلات (تشارلز داروم (١٨٨٢:١٨٠٨) حول العالم ورحلات(جوناثان سويفت(١٧٤٥:١٦٦٧)فى رحلات (جليفر) ورحلات (أندريه جيد)التى امتزج فيها الواقع بالخيال فإذا انتقلنا من رحلات الواقع إلى رحلات الخيال وجدنا رحلات أدبية خيالية يضيق عنها الحصر

فـى الشـرق والغـرب ،عـبر جميـع العصـور فلـدينا رحـلات(أبـو العـلاء المعرى)فى(رسـالة الغفـران)و(ابـن شـهيد)فى (التوابـع والزوابـع)و(ابـن طفيل)(حىن يقظان).

هـذا فـى العصـور الوسـطى،ورحلات الشـاعر(جميـل صـدقى الزهـاوى) (ثـورة فـى الجحـيم)و(عبـاس العقـاد)(ترجمـة شـيطان) والهمشرى(شاطئ الأعراف)و(فوزى المعلوف)(على بساط الريح)و(شفيق المعلوف) فى (عبقر) و(محمد الفراتى)فى(الكوميديا السماوية)و(سعيد عقـل) فـى(قـدموس) و(المجدليـة) بـل ثـة الـرحلات الفلسـفية والدينيـة والصوفية ورحلات الخيال العلمى سواءً فى الشرق والغرب معاً.

هذا الثراء البـاهظ لأدب الرحلات يؤكد أن الترحال قيمة فطرية أصيلة لدى الإنسان،وحاجة شعورية ولا شعورية معاً لإنماء الذات الإنسانية ،وشوقها الدفين إلى الاتصـال بـالآخر أيـا كـان زمانـه ومكانـه ،كمـا يضمر الترحال لى البشر هذه الرغبة الإنسانية العميقة لإرواء الحاجة إلى المجهول ،فالشوق إلى المجهول حاجة أصيلة لدى الإنسان قديماً وحديثاً. هذه الحاجة الأصيلة تتجاوز مجرد الرغبة فى الفضول والكشف لدى الإنسان إلى كونها حاجة هامة أهمية الوجود ذاته ،فى بناء الذات من خلال التواصل مع

الآخر .فالإنسان وجود فى العالم وبالعالم وللعالم ولا يمكن لهذا الوجود أن يتحقق فى صورته الجوهرية إلا بأشياء العالم وموجوداته الحية وغير الحية فى وقت واحد .

وإذا كانت الرحلات الحقيقية قد شملت البر والبحر والفضاء أى شملت الأفقى والرأسى والكونى من أجل كشف العالم المحيط بنا ،ومحاولة الإحاطة به،فهل استطاع الإنسان فى جانبه الانفعالى الروحى أن يحيط بأسرار ذاته وأن يسيطر على آفاق إنسانية الرحيبه؟ لقد استطاع التطور التكنولوجى فى وسائل النقل أن يدفع بالرحلة إلى أجواء جديدة تماماً حتى ليستطيع الإنسان المعاصر أن يقطع فى شهر واحد ما كان يقطعه الإنسان القديم فى سنوات طوال،وبناءً على ذلك كان من الضرورى أن تحدث تغيرات جذرية على مفاهيم إنسانية ووجودية من مثل.ما هى حدود الذات الإنسانية ؟ما مدى حدود علاقتنا بالآخر؟ما علاقتنا بالزمان والمكان المعاصرين؟!هل تقارب الإنسان فى المكان وتباعد فى الزمان؟!هل استطاع الإنسان أن يجوب الفيافى والقفار والجبال والوديان ويعتلى القطبية ،ويرصد كل صغيرة وكبيرة فى أجواء الفضاء وأعماق البحار،ولم يستطع أن يجوب ذاته ،ويجول فى ضميره الإنسانى ؟ماذا لو كسب الإنسان العالم كله وخسر نفسه؟!هنا يتقدم الأديب باحثاً عن(ميتا فيزيقا جديدة للترحال)).

الترحال جغرافيا التخييل والدهشة عبر مسارات الفكر والوجدان والاستشراف، ولنا أن نتصور البدء الأول لمفهوم الرحلة في التراث الإنساني التليد يقول محمد لطفي اليوسفي في دراسته عن ((حركة المسافر وطاقة الخيال: دراسة في المدهش والعجيب والغريب)) :((في أزمنة البدء أيام العالم لم يزل بعد طريا هشا محاطا بالأسرار وأيام الكلمات لم تزل تشتلك سرّية الإيماءة وسلطان الإشارة كانت الرحلة تعبيرا عن إصغاء الكائن لنداء الأقاصي .فالرحلة من جهة كونها حركة سفر وانتقال إنما تترجم الرغبة في العبور من الهنا إلى الهناك، من الأليف إلى المجهول، من المحدود الضيق الخانق إلى المطلق. الرحلة ليست حدث سفر وتجوال في المكان أو في الوهم والخيال فحسب، بل هي ترجمة فعلية لرغبة الكائن في الخلاص من شرطي الزمان والمكان والعدم.في أزمنة البدء أيام كانت الحياة هشة طرية مشتهاة كانت الرحلة تعبيرا عن إصغاء الكائن لنداء الأقاصي.

وفي أزمنة البدء كان خروج قلقامش من أروك تجسيدا لهذه الرغبة الجارفة في تحطيم الحدود ومشاركة الآلهة في الخلود. وفي الأزمنة ذاتها كان بناء برج بابل تجسيدا للرغبة في الرحيل من البشري المحدود إلى المطلق والألوهي. لقد كانت رحلة قلقامش رحلة في المكان امتدت أفقيا من بلاد الرافدين حتى جبال الأرز في لبنان.

أما الرحلة التي خط ط لها بنو البشر نكاية في الآلهة آن بنائهم لبرج بابل فقد كانت حركة صعود وعروج امتد ت عموديا من الأرض إلى السماء وكل لت بالخسران.

ولن تخرج رحلة أورفيوس آن هبوطه إلى مملكة الدياجير عن هذه الأطر. فلقد كانت رحلة تنشد اختطاف الحياة من أحشاء العدم. وعلى هذا البحث المض عن المعنى كان جريان رحلة عوليس في الأوديسية.

أما كتاب ألف ليلة وليلة فإنه كتاب سفر وترحال بامتياز. سفر من الواقعي المصدق به باتجاه ما لا يقبل التصديق لجعله ممكن التصديق. وما لا يمكن وقوعه في الأعيان لجعله ممكنا في التوهم والأذهان بالالتجاء إلى القص والتخييل وتحطيم الحدود الفاصلة بين الممكن والمحال.ومثلما لم يجن قلقامش من رحلته غير المرارات، هدم برج بابل فبلبلت ألسنة بني البشر جراء سخط الآلهة.

وعاد أوروفيوس كسير النفس إلى موطنه طراقيا بعد أن حكم على حبيبته يوريديكا بأن تؤبد في مملكة هاديس وحيدة إلى الأبد.الرحلة. من هذا المنظور، ليست مجر د سفر باتجاه التخوم، بل هي فعل وجود. ومعنى كونها فعل وجود أنها بحث عن المعنى أو توسيع لدائرة المعنى. وهي أيضا

تعبير عن رغبة الكائن في الإفلات من شرط لم يختره، لكنه اختار أن ينازله. والرحالة، مثله مثل عابر السبيل إنما يختار الإقامة في السفر والترحال بحثا عن المغاير والفريد والعجيب. إنه يخوض تجربة السفر ثم يدونها. لذلك يرد نصه الذي يروي حكاية حاله مخترقا بزمنين: زمن التجربة وزمن تدوينها. إن زمن التدوين أو القص لا ينفتح على زمن خوض التجربة إلا بالاستحضار والتذكر والحنين.))

وبناء على هذا التصور فإذا كانت الرحله منظومه جماليه ومعرفيه معقده ، تتجلى فيها صورة الذات بالقياس إلى الآخر ، أو صورة الآخر بالقياس إلى الذات ، فهي في كل الأحوال حدل ثقافي قيمي أيديولوجي يترامى إلى سياقات سياسيه واجتماعيه ومعرفيه وجماليه وتخييليه يتم فيها اكتشاف الذات والآخر معا. مما تتيحه الرحله ذاتها من مسافات جمالية ومعرفية موضوعيه تسمح بالرؤيا الكليه النسقيه ، سواء في بداية الرحله لدى الآخر، إذ تعيد الذات اكتشافه في أنساقه الثقافيه المتعدده ، أو في نهاية الرحله لدى الأنا ، إذ يعيد الآخر اكتشاف الأنساق الثقافيه والجماليه والمعرفيه الخاصه بي أيضا . إن الرحله هنا تمثل(كوجيتو وجودى) يصح أن يستبدل المنطق الفلسفى فى مقولة ((أنا أفكر إذن انا موجود)) بنسق تخييلى جماعى ((أنا أرحل إذن أنا موجود)) "حيث

يرى المسعودى أن((ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه تقاذف الأسفار وإستخراج كل دقيقه من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه)) فالسفر مرآة الأعاجيب، وقسطاس التجاريب كما قال الشيخ حسن العطار، إن الرحله والترحال هي صوره من صور الانتقال والتحول والتركيب في بنية العقل والخيال معا ، والرحله هي إحدى التيمات الوجوديه الكبرى في حياة البشر، سواء كانت على المستوى الواقعي العيانى،في رحلات الهجره المرتبطه بالصراع مع الطبيعه، والآخر، أو رحلات الحروب وخلق جدل الهويه والاختلاف مع الآخر ، أو رحلات التاريخ والجغرافيا والتراجم وهناك رحلات النبوة التي تمثل عنصرا مركزيا في أية نبوة ، كما تمثل الرحلة مقاما تحوليا من لحظة الضعف إلى لحظة القوه ، ومن لحظة النفي للعلوم، وإثبات المجهول الغيبي الذي يملك على الناس عقولهم وأرواحهم معا وهناك الرحلات الأدبيه والخياليه المحضه ، سواء في بنية القصيده الجاهليه ، أو بنية المقامه والرسائل النثريه كرساله ابن شهيد في التوابع والزوابع ، ورسالة الغفران للمعري ، وفي جميع هذه الرحلات يصادى الثقافي بالتاريخي بالسياسي بالاجتماعي بالجمالي في بنية نصيه سرديه مفتوحه ومتحوله باستمرار ((فالرحله نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيج في خانه

محدده تجنسه بصفه معينه تضيق من تحرره واتساعه وانتشاره وهجومه الصيرري . على حقول أخرى . لبدا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحله . وعلى خطاباتها المستنده على طرفي الذات والآخر . وجسور التعبيرات المختلفه عنهما وحولهما . كما تصبح الرحله بمختلف أنواعها نصوصا قابله لا تتسابات مفتوحه)) .